مجلة الموروث
ص: 72 - 87

مجلد: 04 عدد: 02 السنة: 2022
ISSN:2710-8503/EISSN:2992-1538

صورة الطوارق في الأدب الإسباني، رواية "طوارق" للروائي ألبرتو باثكث فيكيروا أنموذجا

The image of the Touareg in Spanish literature, the "Touareg" novel by the novelist Alberto Vazquez Figueroa as a model

(ط . د) عبد الكريم نفيس[1] / Abdelkrim Naffis [1] *

أ . د. محمد بكادي[2] / Mohammed Bakadi [2]

مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست،

جامعة الحاج موسى أق أخاموك . تامنغست . الجزائر

University Of Lhadj Moussa Eg Akhamouk Tamanghasset Algeria

2 mohamedbakadi@gmail.com 1 krimo13tam@gmail.com

تاريخ الإرسال: 11.10.2022	تاريخ القبول: 19.11.2022	تاريخ النشر: 30.11.2022

ملخص البحث

لقد كانت الصحراء ولا تزال، وستظل الأشياء الملهمة للأدباء والشعراء وكل المبدعين في شتى أصناف الفنون الابداعية. فهي بما تحويه من أبعاد جمالية ونفسية وفكرية صارت منبع استلهام لا ينضب يغترف منه الأدباء من شتى أصقاع الدنيا لتشكيل أعمالهم الأدبية.

ولعلّ من بين هؤلاء الذين تناولوا الصحراء في كتاباتهم الأدبية لاسيما صحراء الهقار بالجزائر هو الكاتب الإسباني باثكث في روايته "طوارق"، والتي تطرق فيها لأحد أهم عناصرها الأصلية وهو الإنسان التارقي، ذلك الإنسان الذي سكن الصحراء وسكنته الصحراء.

ومرادي من مداخلتي الموسومة بـ (صورة الطوارق في الأدب الإسباني، رواية "طوارق" للروائي ألبرتو باثكث فيكيروا أنموذجا)، هو دراسة الصورة التي رُسمت لنزيل الصحراء؛ الإنسان التارقي . الذي سبق وقلت أنّه جزء لا يتجزأ من الصحراء . في الأدب الإسباني، وبالخصوص في الرواية الإسبانية رواية "طوارق" للروائي الإسباني ألبرتو باثكث فيكيروا.

* عبد الكريم نفيس: krimo13tam@gmail.com

الكلمات المفتاحية: أدب إسباني، باثكث، صورة الطوارق، صحراء.

Abstract:

The desert was, is and will remain the important things for writer, poets and all creators of all kinds of creative, arts. with its aesthetic, psychological and intellectual dimension, it has became an inexhaustible source of impiration from which writers from all over the world gather to from their literary works.

perhaps among those who dealt with the desert in their literary writings, especially the Hoggar desert in Algeria, is the Spanish writer Bathceth in his novel "Touareg", in which he touched on one of its most important original elements, the Touareg man, the man who inhabited the desert and inhabited the desert.

And what I want from my intervention tagged with (**The image of the Touareg in Spanish literature**, **the "Touareg" novel by the novelist Alberto Vazquez Figueroa as a model**), is to study the image that was printed for the desert resident, the Touareg man Spanish Novelist Alberto Vazquez Figueroa.

Key words: Spanish literature, Vazquez, image of the Touareg, Desert.

مقدمة

إنّ الرواية فن نثري يتناول مواضيع مختلفة ومتنوعة، فيتسع مجالها لكلّ المواضيع التي تخطر على بال المبدع، بحيث يجد فيها الأديب حرية غير مقيدة، فتراه يداعب الألفاظ والعبارات حين سبكه للنص السردي، والملاحظ أنّ المبدعين في مجال جنس الرواية أقبلوا عليها بشكل كبير وواسع في مختلف الآداب العالمية، نظرا للسبب المذكور سالفا، وتكون بذلك قد احتلت مكانة عالية بين الآداب العالمية، ولعلّ أهم النصوص السّردية تميّزا، هي تلك التي تناولت مواضيع ذات طابع تراثي، المتميز بغزارته وكثافته وسعة مجاله.

ومن بين المبدعين الذين طرقوا مجال المواضيع التراثية، فاتسمت أعمالهم بالرّيادة والنّجاح . حسب اعتقادنا . هو الكاتب والروائي الإسباني ألبرتو باثكث فيكيروا، مسلطين الضّوء في بحثنا هذا على تناوله لأحد النماذج البشرية، وهم الطّوارق، متخذين من روايته (طوارق) عيّنة وأنموذجا للدّراسة، محاولين الإجابة على إشكالية جوهرية وهي: كيف صوّر ألبرتو باثكث فيكيروا الطّوارق في روايته هذه؟ وهو تساؤل تطرقنا للإجابة عليه من خلال المحاور الآتية:

1 . الأدب الإسباني؛ التّعريف والخصائص.

2 . التّعريف بألبرتو باثكث فيكيروا.

3 . تجليات صورة الطّوارق في الرواية.

1. الأدب الإسباني؛ التعريف والخصائص:

الأدب الإسباني تسمية تطلق على الأدب الذي تم إنتاجه داخل حدود المملكة الإسبانية في الجزيرة الإيبيرية، والذي تمت كتابته، إما باللغة الإسبانية الرّسمية وهي اللغة القشتالية[1]، أو بإحدى اللغات المعترف بها في المملكة الإسبانية؛ كاللغة الكتالونية، وهي اللغة الموجودة في المنطقة الواقعة شمال شرق مملكة إسبانيا، التي تسمى مملكة إسبانيا، التي تسمى منطقة كاتالونيا، أو اللغة الباسكية، وهي لغة منطقة الباسك والتي يتحدث بها الباسكيون الموجودون في شمال شرق اسبانيا على الحدود الجنوبية الغربية لفرنسا أو اللغة الجالكية، وهي اللغة التي تستعمل في منطقة (غالسيا)

الموجودة في المنطقة الغربية لإسبانيا. كما يطلق على بعض الآداب الأخرى التي تعد كفرع هام من فروع الأدب الإسباني، وهي تلك الآداب المكتوبة بالإسبانية التي تمّ إنتاجها خارج الحدود الجغرافية لإسبانيا، والتي يطلق عليها تسمية أدب أمريكا الإسبانية[2]. وذلك لكونها آدابا قد أنتجت داخل الدّول الواقعة في القارة الأمريكية الجنوبية، والتي كانت عبارة عن مستعمرات إسبانية سابقة. كما ينسب للأدب الإسباني الإنتاجات الأدبية التي تمّ إنتاجهما من طرف يهود، وعرب إسبانيا، سواء أكتبت باللغة العبرية، أو العربية أو اللاتينية.

وقد تميز الأدب الإسباني في فترة البدايات، وهي فترة ما قبل القرن السّادس عشر الميلادي، بظهور أجناس أدبية بسيطة، كجنس (صنعة الحكواتية)، وهو جنس أدبي يتضمن قصائد المديح، وقصائد البطولات، وهذا الجنس يؤدى من طرف منشدين متجولين، كما تميز بكتابة بعض الملاحم، وبعض المسرحيات كمسرحية (الملوك المجوس). ضف إلى ذلك فقد ظهرت في هذه الفترة قصائد غنائية غزلية مكرّسة بشكل كبير للتغني بمحاسن الفتيات[3].

أمّا في عصره الذّهبي، وهي مرحلة من أهم المراحل التي مرّ بها الأدب الإسباني، ومن المحطات المتميزة في تاريخه الأدبي وذلك باعتبارها الفترة التي ازدهرت فيها كلّ الفنون، كالرّسم، والموسيقى، وبزغت فيها العديد من الحركات الفكرية، وقفز فيها الأدب الإسباني شعرا ونثرا، قفزة نوعية كبيرة جدا، وذلك باعتباره العصر الذي ضم كوكبة من المبدعين الإسبان الذين كان لهم باع في الأدب، والذين خلّفوا لنا العديد من الأعمال الأدبية الإبداعية الرّائدة، التي خلّدت الأدب الإسباني، ليس على المستوى القومي فحسب، بل على المستوى العالمي، أيضا، لكون أنّ جلّها صنّفت على أنّها آدابا عالمية[4].

وأمّا في عصر الإنتكاسة فقد أفل نجم الأدب الإسباني وضعف، بعد أن في قمة القمم خلال فترة عصره الذّهبي خلال القرنين السّادس عشر والسّابع عشر الميلاديين، حيث تراجع الإبداع المسرحي، وقلّت الأعمال النثرية والشّعرية التي كانت مزدهرة قبل ذلك، وأصبحت مواضيعها تعاني من الضّحالة والسّطحية، وصارت الأعمال الأدبية الإسبانية في تلك الفترة، على قلّتها، مجرّد تقليد أعمى لبعض القوالب الأدبية الفرنسية، كما قد ظهرت خلال تلك الحقبة بعض الأعمال الأدبية المحتشمة والهزيلة، التي لم تكن ترق للعمل الأدبي المتميز، وربما العمل الأدبي الوحيد الذي

كان مقبولا إلى حدّ ما، هو عمل الرّوائي: (**خوزيه فرنشيسكو دي لا إسلا**)، الذي تناول فيه قصة الرّاهب والواعظ الشّهير: (**خروندیو دي كمباثس**)، والمشكّل من جزئين، كتب الأول منهما سنة 1758، والجزء الثاني فقد كتب سنة 1768.

وفي عصر الإحياء أُلّفت العديد من الأعمال الأدبية ذات التوجه الرّومانسي في إسبانيا، تميزت بأهميتها وذاع صيتها وحظيت بشهرة واسعة، والتي كان من أهمها مسرحية (دون جوان تينوريو) التي ألّفت سنة 1844، للكاتب الإسباني (**خوسيه ثوريا**)، والتي تعد من أنجح الأعمال المسرحية الإسبانية في تلك الفترة. أو القصائد الرّومانسية التي كان يكتبها الشاعر الإسباني (خوسيه دي إسبرونسيدا)، والتي من أشهرها، قصيدة (طالب سلمنقة)، أو التي كتبها مواطنه (**وكَوستابو أدولفو بكير**)؛ الشّاعر الإسباني المرهف الحس، الذي تعد أشعاره بوابة الانتقال للشّعر الإسباني الحديث.

ليأتي بعد ذلك، عصر الأدب الإسباني المعاصر والذي ظهرت فيه شخصيات بارزة من الكتّاب والشّعراء والمسرحيين الإسبان، الذين ينتمون للجيل الموسوم "بجيل 98"[5] ، وهم: "(**إنخيل جانيفيت**)، و(**ميغيل دي أونامونو**)، و(**إنريكي دي ميسا**)، و(**راميرو دي مايثتو**)، و(**أنطونيو ماتشادو**)، وكل من الإخوة؛ (**ريكاردو باروخا**)، و(**بيو باروخا**)، و(**رامون ماريا ديل بايي إنكلان**)، والعالم اللغوي؛ (**رامون مينينديز بيدال**)"[6]. وقد تميزت جل الأعمال الإبداعية لهؤلاء الكتاب المنتمين لهذا الجيل، بتأثرها بالكثير من النّزعات التي سادت تلك الفترة، مثل؛ تمجيد السّلوك غير الإجتماعي واللاعقلانية وكذا تأثر أعمالها الإبداعية ببعض التيارات الفكرية والأدبية مثل البرناسية والرّمزية، والوجودية، والانطباعية...الخ[7].

أعقبهم بعد ذلك جيل يضم كوكبة من الكتّاب والشّعراء والمسرحيين والفنّانين، ساهموا، كذلك، بإبداعاتهم الأدبية في إثراء الإنتاج الرّوائي والشّعري الإسباني، وتعدى تأثيرهم ليصل لأمريكا اللاتينية، وخلقوا أسلوبا جديدا في التعبير عن أفكارهم وأرائهم لم يكن عند أسلافهم، تميز بالنّقد الصّريح للأوضاع السّياسية السّائدة آنذاك، كما تميزت كتاباتهم من النّاحية الفنية بكثرة الاستعارات والتشبيهات، من بينهم: "**دماسو ألونسو Damaso Alonso**"[8]. ثم تلا

ذلك الجيل، جيل آخر، وهو جيل (الخمسينات الشّعرية) أو ما يعرف بـ (جيل ما بعد الحرب)، وهو جيل جاء بعد الحرب الأهلية الإسبانية، وضم عددا من أبرز المبدعين الإسبان، منهم: كلاوديو رودريغيز وغيره.[9]

2. التّعريف بألبرتو باثكث فيكيروا:

هو واحد من الأدباء الأجانب الذين اهتموا بالثّقافة العربية والإسلامية وتأثروا بها، فكتبوا عنها أجمل الصّفحات الأدبية والإبداعية، ولد في"11 أكتوبر 1936 ب (سانتا كروز)، وتحديدا ب (دي تينيريفي، جزر الكناري)، وهو روائي ومخترع وصناعي إسباني، يملك شركة اسمها (AVFSL)؛ وهي شركة لتحلية المياه، اخترعها بنفسه"[10].

"فرّ باثكث فيكيروا وعائلته من جزر الكناري إلى إفريقيا خلال الحرب الأهلية الإسبانية، وزار الصّحراء منذ شبابه، ووصف ثقافة المنطقة الصّحراوية، كما عمل مدرسا لتقنيات الغواصات والغوص على القارب المدرسي، اشتغل مراسل حرب للتلفزيون الإسباني، حيث قام بتوثيق الحروب الثورية في دول مثل: بوليفيا، وجمهورية الدّومينيكا وغواتيمالا، وتعد روايته (الرّمل والرّيح) باكورة أعماله الأدبية، التي اتسمت بالكثرة والغزارة، فنذكر منها (روية طوارق، العيون الزّرق، على خطى أليك، سلسة الحرائق، مائة حريق، كاريبيان، طائرة نفاثة، الجبل الأسود، سعود النّمر، ذراع قوي، أرض البيسون، ننسى ماتشو بيتشو، ماناويس، فيراكو تشا، أتاكوندا)"[11].

وفي سنة 1975، نشر ما بين أربعة عشر وخمسة عشر رواية، وروايته هذه التي هي محل دراستنا، كان قد كتبها سنة 1980، "وتم تصويرها كفلم عام 1984، من قبل المخرج (إتزو جه كاستيلاري)، كما تم تصوير روايته (إكواتا) عام 1988، من قبل المخرج (موتشي هيلمان)، وتحصل من خلال روايته (قاروي. وهو اسم شجرة مقدسة في جزر الكناري.) على جائزة الرّواية التّاريخية، وقيمتها المالية: 100.000 أورو، ويعتبر باثكث أيضا كاتب سيناريوهات، ومخرج أفلام، ومن بين أفلامه (أورو روجو)"[12].

3. تجليات صورة الطّوارق في الرواية:

لا زالت الرّواية ذلك الفضاء الأدبي الرّحب، الذي يتسع لتصوير حياة الناس بمختلف جوانبها؛ الإجتماعية والسّياسية والثّقافية والدّينية، باعتبارها جزء من الثّقافة البشرية، وهو ما يمكننا إبرازه من خلال تطرقنا لصورة الطّوارق المتجلية في هذه الرّواية من خلال ملامسة زواياها المتعددة.

3 . 1 . تصوير العادات والتّقاليد:

من المعلوم أنّ الطّوارق لا يختلفون "كثيرا في عاداتهم وتقاليدهم عن كلّ سكان الصّحراء الكبرى وكذلك الشّمال الإفريقي الذي يتشابه إلى حدٍّ كبير في عاداته وتقاليده مع سكان الجزيرة العربية"[13]، مع وجود فروقات طفيفة بين قبائل الطّوارق في تلك العادات والتقاليد، وقد ألفينا ألبرتو في روايته هذه مصوّرا إيّاها والتي عايشها بنفسه، ومن ذلك إشارته إلى شدة احترام الرّجل الطّارقي لعاداته وتقاليده، فقد رأى (غزال صياح) . بطل هذه الرّواية . وهو يغطي "وجهه باللّثام بوصفه (إموهاغ) نبيل يحترم تقاليده"[14]؛ إذ أنّ رجال الطّوارق يغطون وجوههم باللّثام فلا يظهر من وجوههم غير العينين، وقد تعب المستعمر في محاولته ليسفر الطّوارق عن وجوههم، "لقد حاول الفرنسيون عبثا خلال سنين أن يجعلوا الطّوارق يسفرون عن وجوههم".[15]

ومن تقاليدهم المصورة في هذه الرّواية حمايتهم للضّيف، فلا يسمحون لأحد أن يؤذي ضيوفهم مهما كلّفهم الأمر، فها هو غزال يقصد خيمته رجلين فارين من بطش المستعمر الفرنسي فآواهما، وتصدّى لأعدائهما "إنّهما ضيفاي.. تقدّم الضّابط الذي يقود المجموعة بضع خطوات لمعت نجومه على كُفة كمه حينما قام بحركة كي ينحي الطّارقي، لكن أوقفه بحركة قاطعا عليه الطّريق نحو المضرب. إنّهما ضيفاي... الضّيافة عندنا مقدّسة [...] أترك ضيوفي بسلام"[16]، فإن لم يتمكنوا من حماية ضيوفهم فسيبقى ذلك عار على جبينهم، لذلك خاطبهم قائلا: "نحن الطّوارق سلالة من الأحرار والمحاربين، وبقينا هكذا لأنّنا لا نتحمل الضّيم أبدا والإهانة"[17].

ومن عاداتهم، كذلك، عندما يتعلق الأمر بالقتال فإنّهم لا يغدرون بأحد، بل يواجهون خصمهم وجها لوجه، فإنّ "قانون الشّرف عند (أبناء الرّيح) يقتضي أن تكون المواجهة بين مقاتلين نظيفة ونبيلة حتى ولو كان ذلك مصير الحياة، يتحدّون وجها لوجه ويقتلون وجها لوجه"[18]، ومن خلال ما صوّره الرّوائي لعادات وتقاليد الطّوارق، نلحظ أنّهم يلتزمون بها بشدة،

يمجدونها ويقدسونها ويدافعون عنها، ويؤكدون على أنّه "يجب أن يستمر احترامها. لأنّها سنن وعادات متكيّفة مع الوسط الذي يعيشون فيه، ومن دونها لا يوجد أيّ إمكانية في البقاء على قيد الحياة"[19]، فباثكث ومن خلال عيشه معهم لفترة من الزمن، أدرك بدوره أنّ "الطّوارق (الأماهغ) القلّة الذين ما زالوا يجوبون تخوم الصّحراء، أوفياء لتقاليدهم وسننهم"[20].

3 . 2 . تصوير المستوى الفكري:

لقد شهد التاريخ من خلال تلك الرّسومات والكتابات التّفينيغية، المنقوشة في صخور الصّحراء الكبرى على المستوى الفكري الذي يمتاز به الطّوارق، بحيث وثّقوا بذلك تاريخا عريقا، فتجد "هذه الكتابات في مغارات جبال الأكاكوس. وتاسيلي. والهقار. وجبال الآيير"[21]، وإن كنت تراهم بسطاء في حياتهم، لكنّ أفكارهم جدّ معقدة كما قال ألبرتو مصوّرا ذلك: "لا يمكن استيعاب الصّحراء وناسها في سنة واحدة، ولا في عشر، والذي لا أستطيع استيعابه أبدا بشكل كامل هو عقلية ونمط تفكير واحد من أولائك (أبناء الرّيح)، فهم بسطاء كما يبدون بشكل وطريقة حياتهم، لكنّهم في الواقع معقدون بشكل عميق"[22].

كما أنّهم يمتازون بالذّكاء، والقدرة على التحليل والاستنتاج، وتخيل الأشياء التي لم يروها قط في حياتهم، حتى الفلسفة ويتقنون حلّ قضاياها، هكذا صوّرهم باثكث في روايته، وترى ذلك جليّا في المقطع السّردي الآتي: "يقولون أنّ سلالتنا كانت ذكية، متحضرة وقديرة، هناك في جزيرة كريت، في زمن الفراعنة، من علامات الذّكاء والمقدرة أنّهم حاولوا غزو مصر"[23]، وتلمس صورة ذلك أيضا عندما تقرأ قول الرّوائي: "لا تثق بالطّوارق . قال له . لا تتركهم يأخذونك بمظهرهم، لأنّني متأكد من أنّهم يملكون العقول الأكثر تحليلية والأكثر دهاء في القارة. إنّهم سلالة خاصة، حتى أنّهم لو أرادوا لسيطروا علينا"[24]، ويتابع ألبرتو تصويره لفكر الطّوارق قائلا: "يستطيع الطّارقي أن يدرك ما هو البحر دون أن يكون قد رآه أبدا، ويستطيع حلّ مسألة فلسفية، لا أنا ولا أنت ندرك حتى مصطلحاتها المطروحة. حضارتهم غارقة في القدم"[25].

ولم يغفل باثكث عن تصوير تمسكهم بدينهم، ولاحظ ذلك من خلال الحملات التبشيرية التي شنّها المستعمر من أجل أن يغيّر ديانة الطّوارق، الإسلام. ليردوهم عنه وينقلبوا مسيحيين

وهيهات، وتأكّد هؤلاء "المسيحيون بأنّهم لن يصلوا إلى تحويل مسلم واحد إلى المسيحية"[26]، ومن الدّلائل التي برهن بها على إسلامهم، أنّهم لا يأكلون لحما غير مذبوح بالطّريقة الإسلامية، وقد صوّر ذلك في بطل روايته ـ غزال صياح ـ حيث أنّه "كمسلم صالح لا يأكل لحما غير مذبوح باتجاه مكة تاليا الصّلوات التي أمر بها الرّسول"[27]، كما أعجب ألبرتو بحياتهم الرّوحية التي تحملهم على التسليم المطلق لربّهم في أعوص ظروفهم، ف"الله يرانا في كلّ مكان، حتى في أعمق السّجون الحالكة، يقدّر عذاباتنا ويكافئنا على تحمّلنا من أجل قضية عادلة"[28]، ولاحظ أنّ "الطّوارق هم الوحيدون بين كلّ الشّعوب الإسلامية الذين ما زالوا يتبعون بوفاء تعليمات محمّد، معلنين المساواة بين الجنسين"[29] .

وما زال باثكث يصوّر لنا المستوى الفكري للطّوارق حين يخاطبهم من يجهل عالمهم، ولا يستطيع أن يدرك كنهه، فهم على عكس ذلك، وتمعن ذلك في المقطع السّردي الآتي، إذ يقول فيه صاحبه: "الفرق بيننا يرتكز على أنّ الطّوارق يطلون على عالمكم، يراقبونه، يفهمونه ثم يبتعدون، أنتم لا تقتربون من عالمنا وأكثر من ذلك أنتم عاجزون عن فهمه، ولذا نحن دائما أكثر تفوقا"[30]، فهذه مزية وفضيلة لا يملكها إلا أولائك الذين "ولدوا وترعرعوا بين الرّمال، مثل الحمام الزّاجل، الطّيور المهاجرة أو الحيتان في أعماق المحيطات، الطّارقي يعرف دائما أين يكون وإلى أين يتجه، كغدة غارقة في القدم، ضمرت عند البقية من الكائنات البشرية واستمرت فقط عندهم، نشطة، فعّالة وكفؤة"[31].

3 . 3 . تصوير العلاقات الإجتماعية:

يعيش الطّوارق نظاما اجتماعيا خاصا، فيرتبطون بقبيلتهم ارتباطا وثيقا ف"لا يكون من قبيل المبالغة القول إنّ المجتمع الطّارقي هو مجتمع قبلي قلبا وقالبا، حيث تشكل القبيلة ـ لا الدّولة ـ الآصرة الأقوى التي تنحل فيها كلّ ولاءات الأفراد ومظاهر التبعية والانقياد لديهم"[32]، فهذا الالتصاق الحميم بالقبيلة والذود عنها بكلّ غال ورخيص في سبيل إعلاء شأنها، والمحافظة على قداستها "لم يولد للطوارق من فراغ بطبيعة الحال، وإنّما كان نتاج تضافر مجموعة مختلفة من الظّروف والعوامل الطّبيعية والسوسيوثقافية"[33]. وامتازت علاقاتهم الاجتماعية فيما بينهم أو مع غيرهم بالكرم وجمال الضيافة، وهو ما صوّره ألبرتو في ثنايا هذه الرّواية قائلا: "روح الطّارقي

وتقاليد الصّحراء العريقة في القدم كانت تصرخ بأنّه سلك تصرّفا سليما في إيوائه هؤلاء المسافرين تحت سقفه. حيث حسن الضيافة يشكل البند الأول من قانون الأماهغ غير المكتوب"[34].

فتراهم يفرحون بالزّائر ، ويحبون الاجتماع مع بعضهم فيتبادلون أطراف الحديث، ويتسامرون بالقصص الغابرة، وقد صوّر باثكث ذلك على شخصية بطل الرواية بقوله: "كان غزال يحتفي بالزائرين بسرور، ويحب الاجتماع حول الصّلاء ليحكي قصصا قديمة وأحداثا صغيرة من الحياة اليومية"[35]، ولا تخلو جلساتهم من الغناء والرّقص على أنغام تيندي أو الإمزاد، وتستمر سهرتهم أحيانا إلى السّاعات الأولى من الفجر، غير مبالين بالوقت ومروره، واضعين لأنفسهم إشارات ورموز موحية ومعبرة، يجهلها غيرهم، وها هو فيكيروا يصوّر ذلك قائلا: "شهيرة هي حفلات العزّاب في الصّحراء عند الطّوارق ؛ الأهل، فتيات وفتيان يجتمعون للعشاء على ضوء الصّلاء، يتسامرون بالحكايات، ويعزفون على ال(أمزاد) بوتر واحد، يرقصون في مجموعات حتى ساعات الفجر الأولى، الوقت الذي تأخذ النّساء فيه سعف النّخيل من أيدي الرّجال مخططين بها على أنفسهم رسوما لا يعرف معناها إلا سلالتهم"[36].

وليس غريبا أن ترى المجتمع الطّارقي مسالمان متحابا، يفض خلافاته ونزاعاته بالطّرق السّلمية، فيعملون على إزالة الأحقاد وتصفية القلوب، ومن ذلك ما صوّره لنا الرّوائي ألبرتو حين قال: "روت الأساطير أنّه كان هناك في مناسبة معينة رجلان يحقدان على بعضهما إلى درجة أن أحدهما، الأضعف، حضر بغتة إلى خيمة عدوه ملتمسا ضيافة، غيورا على التقاليد قبل الطّارقي ضيافته. مقدما له الحماية، وبعد مضي شهور، تعبا من تحمّله وإطعامه، أكّد له بأنّه يستطيع الرّحيل بسلام لأنّه لن يحاول النّيل منه أبدا، منذ ذلك الحين تحولت إلى عادة يمارسها الطّوارق فيما بينهم لحلّ خلافاتهم بهذه الطّريقة، وهكذا يصنعون نهاية لنزاعاتهم"[37].

فالمجتمع الطّارقي يعيش على قدر عظيم من الأخلاق، ومنها أنّهم يحترمون أصحاب الحرف ويوقرونهم، ويتمتعون بمكانة راقية بينهم، وهي صورة جسدها أيضا باثكث فقال: "يعتبر الطّوارق أنّ الحرفيين يشكلون على الأرجح الطّائفة الأكثر رقيا في كلّ نظامهم الإجتماعي حيث كثير منهم يعرف القراءة والكتابة"[38].

3 . 4 . تصوير مقاومتهم للمستعمر:

"نحن بلد صغير، فقير ومسالم، لكن لا يعجبنا أن يغزو حدودنا أحد"[39]، عبارة تشهد على أن الطّوارق نزّاعون للحرية، لا يرضيهم أن تبق بلادهم تحت سلطة المستعمر، الذي ظلّ يواصل زحفه، فما "أن وصل الفرنسيون في زحوفهم إلى أرض الصّحراء الكبرى حيث يقيم الطّوارق حتى هبوا مدافعين عن صحرائهم وعن دينهم وخاضوا معارك مشرّفة ضد المستعمرين بسلاحهم البدائي"[40]، ولم يستطع المستوطنون أن يتغلبوا عليهم ويخضعوهم لسلطتهم، فهم خبراء بشعاب الصّحراء ووديانها، متمرسون على الجري في سهولها وجبالها ورمالها الكثيفة، لذلك "فإنّ الفرنسيين لم يكونوا فرسانا صالحين في الصّحراء قط، ولم يستطيعوا قهر الطّوارق أبدا، حيث في زمن الغزو والقتال كان الطّوارق يتغلبون عليهم دائما رغم عددهم الأكبر وسلاحهم الأفضل"[41] .

وكونهم بواسل، فهم لا يرضون بالعيش في ذل ومهانة، وقد التقط ألبرتو صورة لذلك بقوله: "نحن الطّوارق سلالة الأحرار والمحاربين، وبقينا هكذا لأننا لا نتحمل الضيم أبدا والإهانة"[42]، وكان شرف لهم كبير أن يواجهوا من هو أشدّ منهم قوّة، حتى إذا ما انتصر عليه فسيبقى ذلك فخر لهم مدى الحياة، ومن صورة ذلك في هذا النص السّردي، قول صاحبه: "(الإموهاغ)، المحارب الأصيل من سلالتي، يجب أن يواجه دائما من يعرف بأنّه أكثر قوة منه، لأنّه إذا ما ابتسم له النّصر فإنّ بسالته سترى معوضة ألف مرّة، ويستطيع متابعة طريقه فخورا بنفسه"[43].

وفي قوانينهم التي يحترمونها كثيرا، عظيم المواقف التي تدل على الأنفة والشّهامة، فهم يتعاملون بها حتى مع هذا المستعمر الذي لا يؤمن إلا بمنطق القوة والسّيطرة، وها هو غزال عندما احتمى به ضيف فارّ من المستعمر الذي لاحقه إلى خيمته، وقتله هناك، قرّر غزال أن يثأر له، وفعل، لأنّه أدرك أنّ هذا المستعمر الهمجي لا يحترم قانون الطّوارق، وعملوا جاهدين لإخضاعه للمحاكمة فلم يتمكنوا من ذلك، وباثكث لم يفته هذا المشهد، فصوّره في مقطع سردي يقول فيه: "لا يجب على أحد محاكمتي . أوضح غزال بطبيعته . قتلت مبارك في مبارزة حسب تقاليد سلالتي، وقتلت العسكري لأنّه كان مجرما لم يحترم الأعراف المقدّسة للضّيافة... لم أرتكب أيّ جنحة حسب القانون الطّارقي"[44] .

وظلّ غزال يقاوم المستعمر رافضا الإستسلام، ف"الطّارقي يفضّل أن تبتلعه الرّمال على أن يمسكوا به حيّا"[45]، ويرفض رفضا قاطعا العيش في زنزاناتهم القذرة، التي لا يتحمل الطّوارق العيش فيها ولو للحظة، لذلك تجد "الطّارقي يفضل الموت على أن يكون نزيل سجن قذر"[46]، فمن خلال هذه الصّورة الشّاهدة على مقاومة الطّوارق للمستعمر استنتجنا كما استنتج باثكث، أنّ الطّوارق كانوا "شعبا أنوفا لا يقهر، متمرّدا أو محكوما بسننه الخاصة به"[47].

الخاتمة:

وبعد هذا الإبحار الذي قطعنا عبره أمواج بحر الأدب الإسباني، ومن خلال وقوفنا على صورة الطّوارق في رواية (طوارق) لألبرتو باثكث فيكيروا، خلصنا إلى نتائج جوهرية نوجزها في الآتي:

. أسفرت هذه الرّواية على عمق تأثر الأدب الإسباني بالثّقافة العربية، لاسيما حياة الشّعوب الطّارقية القاطنة بجنوب الجزائر، خصوصا منطقة الهقار.

. جنس الرّواية، عالم واسع؛ يتناول مختلف العلوم والفنون بما في ذلك النّماذج البشرية.

. لقد صوّر ألبرتو باثكث بعض جوانب حياة الطّوارق بأسلوب سلس، مستدعيا في ذلك الأمكنة الصّحراوية بطريقة متميزة تنم عن قدرة إبداعية ممتعة.

. لقد ساهم هذا النص السّردي مساهمة فعّالة في إبراز الثّقافة الطّارقية بعاداتها وتقاليدها، وإخراجها للعالم.

. تمكن ألبرتو من توظيف جزء مهم من التراث الطّارقي وفق مقاربة متوازنة، سعى من خلالها لتوثيقه في ذهن القارئ والتعريف به ونشره.

.كان لتصوير هذا النموذج البشري (الطّوارق) أثر كبير في إبراز جمالية الإبداع في هذه الرّواية.

. لم يتصنع باثكث ولم يتكلف، فكان تصويره للطّوارق طبيعي، وهو ما يسفر عن خبرة المؤلف وعبقريته في استدعاء النّماذج البشرية ذات الطّابع التّراثي.

الهوامش:

[1]. القشتالية، هي لغة هند أوروبية، وهي لغة المملكة الإسبانية الرّسمية حاليا، وتعد اللغة الثانية في العالم بعد اللغة الإنجليزية، حيث تعد اللغة الرّسمية لعشرين دولة في العالم، وتتحدث بها حوالي خمس وثلاثين دولة غير إسبانيا. أنظر ويكيبيديا الموسوعة الحرّة: https://ar.wikipedia.org/ wiki

[2]. أنظر، محمد بكادي، الأدب الإسباني، محاضرات في مقياس مدخل للآداب العالمية، الموسم الجامعي 2020 . 2021، كلية الآداب واللغات، جامعة تامنغست، أرضية التعليم الافتراضي (moodle): https://elerning.univ_tam.dz/course/view.php?id=632

[3]. أنظر، محمد بكادي، مرجع سابق، ص33.

[4]. أنظر؛ محمد بكادي، مرجع سابق، نفس الصفحة.

[5]. أنظر: المرجع نفسه، ص35.

[6]. أنظر: المرجع نفسه، ص36.

[7]. أنظر: نفس المرجع، ص 37.

[8]. أنظر: نفس المرجع، 39.

[9]. أنظر: المرجع نفسه، ص40.

[10]. أنظر: موسوعة ويكيبيديا الحرة ، موقع : ar.wikipedia.org/wiki

[11]. أنظر: نفس المرجع.

[12]. أنظر: المرجع نفسه.

[13]. محمّد سعيد القشاط، التوارق عرب الصّحراء الكبرى، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصّحراء، الطّبعة الثانية، 1989، ص89.

[14]. ألبرتو باثكث فيكيروا، رواية طوارق، تر: عبدو زغبور، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، الطّبعة الأولى، دمشق، سوريا، 2004، ص29.

[15]. المرجع نفسه، ص30.

[16]. المرجع نفسه، ص32.

[17]. المرجع نفسه، ص46.

[18]. نفس المرجع، ص62.

[19]. نفس المرجع، ص52.

[20]. نفس المرجع، ص50.
[21]. محمّد سعيد القشاط، مرجع سابق، ص33.
[22]. ألبرتو باثكث، مرجع سابق، ص106.
[23]. المرجع نفسه، ص153.
[24]. المرجع نفسه، ص154.
[25]. المرجع نفسه، ص ن.
[26]. نفس المرجع، ص284.
[27]. نفس المرجع، ص49.
[28]. نفس المرجع، ص190.
[29]. نفس المرجع، ص199.
[30]. نفس المرجع، ص191.
[31]. المرجع نفسه، ص36.
[32]. اكنانة ولد النّقرة، الطّوارق من الهوية إلى القضية، المركز الموريتاني للدّراسات والبحوث الاستراتيجية، 2014، ص72.
[33]. المرجع نفسه، ص ن.
[34]. ألبرتو باثكث، مرجع سابق، ص25.
[35]. المرجع نفسه، ص27.
[36]. المرجع نفسه، ص51.
[37]. الرجع نفسه، ص200.
[38]. نفس المرجع، ص161.
[39]. نفس المرجع، ص240.
[40]. محمّد سعيد القشاط، مرجع سابق،ص185.
[41]. ألبرتو باثكث، مرجع سابق، ص18.
[42]. المرجع نفسه، ص32.
[43]. المرجع نفسه، ص33.
[44]. المرجع نفسه، ص103.
[45]. نفس المرجع، ص108.
[46]. نفس المرجع، ص118.
[47]. نفس المرجع، ص169.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: الكتب:

1. إقبال التميمي، إقبال التّميمي، محطات تطور الأدب الإسباني، جريدة إيلاف، جريدة إلكترونية، لندن، العدد 6906، الأربعاء 15 مارس 2006، https://elaph.com

2. اكنانة ولد النقرة، الطّوارق من الهوية إلى القضية، المركز الموريتاني للدّراسات والبحوث الاستراتيجية، 2014.

3. ألبرتو باثكث فيكيروا، رواية طوارق، تر: عبدو زغبور، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، الطّبعة الأولى، دمشق، سوريا، 2004.

4. جريدة الرياض، جيل 27 في الأدب الإسباني، العدد 15027، السبت 25 أوت 2009، جريدة يومية تصدر عن مؤسسة اليمامة الصّحفية، الرّياض، المملكة العربية السّعودية، www.alriyadh.com

5. صحيفة البيان، صحيفة البيان، تاريخ أدب أمريكا الإسبانية، موقع: https://www.albayan.ae

6. طلعت شاهين، الأدب الإسباني المعاصر، إصدارات المجمع الثّقافي، أبو ضبي، الإمارات العربية المتحدة، 2003.

7. محسن الرملي، الأدب الإسباني في عصره الذّهبي، دار المدى للإعلام والثقافة والفنون، ط1، بغداد، العراق، 2015.

8. محمّد سعيد القشاط، التوارق عرب الصّحراء الكبرى، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصّحراء، الطّبعة الثانية، 1989.

9. نيبيس باراندا، نيبيس باراندا ليتوريو، ولوثيا مونتيخو غروتشاغا، الأدب الإسباني في القرن العشرين، تر: جعفر محمّد العلواني، منشورات الهيئة العامة السّورية للكتاب، دمشق، سورية 2014.

ثانيا: المواقع الالكترونية:

1. موسوعة ويكيبيديا الحرة ، موقع : ar.wikipedia.org/wiki

2. https://elaph.com

3. www.alriyadh.com

4. https://www.albayan.ae